تحليل الخطاب من المدرسة البنيوية إلى المنهج التداولي

محمد حولة،
جامعة مستغانم، مركز البحث CRASC وهران.

ملخص

نحاول هنا تناول البعد التداولي في التحليل النفسـ ـ لساني للخطاب ابتداء من الإرهاصات الأولى التي مهدت لذلك على يد أب المدرسة البنيوية **سوسير** واعتباره للخطاب كمصطلح ثالث يأخذ مكانه بين الثنائية لسان / كلام، وكذلك ما أشار إليه **جاكبسون** والمتمثل في مفهومي الوصل والفصل لإبراز علامات حضور الذاتية في تحليل الخطاب.

إن إدخال مفهوم الفعل الخطابي لإبراز العلاقة الموجودة بين العلامة اللسانية ومستعمليها، ومصطلح فعل القول لـ **أوستن** (1955)، ونظرية الأداء التعبيري لـ **بنفنيست**؛ كلها أفكار مهدت للدراسات التداولية (الاهتمام بالعلامات في علاقتها بمستعمليها)، والتي على إثرها أصبح الخطاب عبارة عن إنتاج تفاعلي لسيرورات نفسية معرفية يهدف إلى تحقيق هدف معين وترك أثر على السامع.

فبهذا الشكل أصبح المنهج التداولي يهتم بالاستعمال اللغوي في مقابل دراسة النظام اللساني(البنية) وبالتالي يصبح الاتصال يؤدي وظيفة عملية فعلية بدلاً من الوظيفة الوصفية.

يأتي مفهوم الخطاب كوسيلة تحليل بنيوية ودلالية ثم استعمالية ليأخذ مفهومه كنظام مستقل يحتل مكانته بين الثنائية لسان/كلام، كما يأخذ نفس الوضعية في ثنائية **تشو مسكي** (Chomsky, N. 1970) الملكة والاستعمال، وبصيغة أخرى هو متموضع بين النص والكلام هذا من جهة، كما يُؤخذ في علاقته بالوضعيات التخاطبية وبمتكلميه (المتكلم، المستمع) وبمختلف الخطابات المحيطة به من جهة أخرى.

إن تطرقنا للبعد النفسي في تحليل الخطاب يندرج ضمن مجال تطور الدراسات النفسـ لسانية في بعدها التداولي pragmatique الذي يهتم بالنشاط اللغوي في علاقته بالتفكير الإنساني وفي أبعاده النفسية والعقلية، والذي مهدت له الدراسات البنيوية وما بعد البنيوية خاصة.

البنيوية اللسانية (البنية والمقولة أو اللسان والخطاب)

الأساس الذي أقام عليه **سوسير** اللسانيات الحديثة عن طريق التمييز بين اللسان والكلام ومقاربته للدراسة التاريخية للسان Diachronique إلى دراسته الآنية Synchronique آخذاً بعين الاعتبار اللسان كنظام شامل يمتلك خاصية الاستقلالية المتجسدة في دراسة اللسان باستعمال اللسان، جسد فكرة الاهتمام باللسان باعتباره مستقلاً عن الأفراد، فاللسان حسب **سوسير** يتمثل في نظام من الأدلة أي من وحدات ذات وجهين؛ من دال يتجسد في صورة صوتية ومدلول يجسده المفهوم (Saussure, F.1972).

وإذا ما تقصينا المدرسة البنيوية اللسانية فنجد أنها تحدد الدراسات اللغوية في مستويين:

يتمثل المستوى الأول في اعتبار اللسان نظاماً مستقلاً في كليته عن التبعية الداخلية، فهو يشكل بُنية بالمعنى الذي يقترحه **يمسليف** Hjelmslev، حيث قيمة كل عنصر من هذا النظام تُعرف في شكل مختلف عن بقية العناصر الأخرى.

أما المستوى الثاني يأخذ بعين الاعتبار استقلالية اللغة في مقابل الواقع، فوظيفة العلامة اللسانية لا تتمثل في ربط الوحدات اللسانية المنتجة مع الأشياء في العالم المرجعي بل تتجسد في ربط الدال مع المدلول، ومفهومها داخل اللسان يتمثل في تحديد الأدلة ويكون في تقابل مع مفهوم اللسان كنظام.

يهدف كلاً من المستويين السابقين إلى استقلالية الدراسة اللغوية عن كُلّ من وجهات النظر النفسية والفلسفية، على اعتبار أن الأطروحات القديمة التي حاولت ربط الدراسات اللغوية بالتفكير في نهاية القرن التاسع عشر أصبحت غير علمية، والحال نفسه بالنسبة للتطرق للغة في علاقتها بالواقع، فضمن الثنائية لسان/كلام يكون كل استعمال للمقولة أوارتباط بها خارجاً عن نطاق اللسان ليصبح متعلقا بالكلام، فالثنائية لسان/كلام تصبح مرتبطة بالثنائية نظام/استعمال.

فالخطاب باعتباره إنتاجاً لوحدات لسانية أثناء عملية الاتصال يتطلب الاهتمام بالعوامل الخارجية للسان التي تسمح للوحدات اللسانية بنقل المعنى من جهة، وتسمح للمكونات الخارجة عن اللسان بالظهور على مستوى الخطاب في البعد اللساني (الداخلي) من جهة ثانية.

مفهوم الوصل والفصل عند جاكبسون

عمل جاكبسون (Jakobson,R.1963) على إدخال مفهوم الذاتية على المستوى الخطابي والتي تتحقق عبر آليتي الوصل والفصل اللذان يؤسسان إطاراً زمانياً ومكانياً للأحداث الواردة في الخطاب الخطي أوالتركيبي؛ فمفهوم الوصل يهدف إلى تحليل علامات حضور الذاتية في الخطاب من ضمائر الإشارات وضمائر الشخصية، أما مفهوم الفصل فيشير إلى غياب المتكلم في خطابه، فالخطاب بصفته نصاً إيضاحياً يتميز بالذاتية التي تظهر في الخطاب كـكفاءة نموذجية متصلة بصيغ الفعل (Jacob, A et all. 665: 1998)، هذه الكفاءة النموذجية ليست منتجة من طرف واحد، فالمستمع دائماً مُتَمثّل من طرف المتكلم، وعلى أساس هذه التصورات والتمثلات المتبادلة بين المتكلمين يتأسس الاتصال.

ميز **جاكبسون** كذلك بين العناصر اللغوية التي لها مدلول ثابت والعناصر التي لا يمكن أن تدل إلا بالإحالة إلى حال الخطاب وسماها shifters، مثل الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والظروف، التي لا تمتلك دلالة معينة في الوضع اللغوي.

إن مجالي الدراسات اللسانية المتمثلين في المقولة والخطاب تمت مباشرتهما من طرف **بنفنيست** Benveniste (1966- 1974) الذي بين الموضع الذي تكمن فيه العلاقة بين البنية والمقولة من جهة وبين اللسان والخطاب من جهة ثانية.

البنية والمقولة

تحليل **بنفنيست** لمختلف أصناف ضمائر الشخصية بينت حدود الثنائية بنية/مقولة، حيث إن بنفنيست ميز بين كلاً من ضمير المتكلم والمخاطب والغائب على مستوى نظامين متقابلين؛ يتمثل الأول في علاقة الأشخاص المتكلمين، فضمير المتكلم

"أنا" مع ضمير المخاطب "أنت" يشكلان وحدة نظام أثناء عملية الاتصال تؤسس للتقابل مع ضمير الغائب "هو"، هذا الأخير الذي يكون غائبا عن وضعية الاتصال على اعتبار أن فعل الاتصال هو عمل الأنا المرسل إلى الأنت؛ في حين يتجسد الثاني في علاقة التبادل الذاتي التي تهدف إلى التمييز بين الشخص الحاضر في عملية الاتصال والشخص الغائب؛ أي تقابل ضمير المتكلم مع ضمير المخاطب في غياب ذاتية الغائب.

اللسان والخطاب

التقابل بين النظام واللسان واستعماله في الخطاب أنتبه له **بنفنيست** من خلال مختلف الأزمنة المستعملة (الماضي، الحاضر، المستقبل) حيث وضع فرقاً بين نوعين من المقولات؛ المقولة المتعلقة بالتاريخ والمقولة الخاصة بالخطاب، إضافة لتمييزه بين مختلف الأزمنة اللفظية؛ فالمقولة التاريخية تعتمد في كليتها على استعمال الماضي، بينما المقولة الخطابية تستعمل في المقابل كل ضمائر الشخصية وجميع مختلف الأزمنة وتؤسس لحضور المتكلم مع المستمع في وضعية التخاطب، وهذا ما يتجلى في تأثير المتكلم بقصده على المستمع في فعل الاتصال، فهذا التماثل بين اللسان والخطاب يتم في إطار المقولة التي هي عبارة عن مكون وظيفي للبنية وفي إطار التداولية كذلك التي تهدف إلى دراسة استعمال هذه البنيات اللسانية.

من الدليل إلى الخطاب

اللغة عبارة عن نظام شكلي يتكون من دليل؛ أي من وحدات متكونة من دال ومدلول يؤسسهما ارتباط ضروري على مستوى ذهن المتكلم، وتؤخذ هذه الوحدات اللسانية في علاقتها بوحدات أخرى أعلى مستوى منها (Benveniste, E.1966:123) من الفونيم إلى الكلمة ثم إلى الجملة، فالكلمة تشكل منطقة وسيطية تربط بين مجالين للسان؛ بين النظام الشكلي الذي تكون فيه الوحدة هي الدليل اللساني، وبين نظام الاتصال أوالخطاب الذي تكون فيه الوحدة هي الجملة، فمن الوحدة الدليل إلى الوحدة الجملة، فهذا ما يؤسس حسب **بنفنيست** نموذجين لإنتاج المعنى:

الأول يسمى مجال الأدلة أوالسيمياء Sémiotique الذي يعطي المعنى بالرجوع إلى الدليل اللساني.

والثاني يسمى مجال الدلالة Sémantique الذي يظهر على مستوى الخطاب حيث تكون الوحدة هي الكلمة الحاملة للرسالة، فمجال الدلالة يتكفل بجميع وضعيات المرجع على خلاف مجال الأدلة أو السيمياء الذي يتحقق من خلال الرجوع إلى المرجع.

إن مجال الأدلة يهدف إلى التعرف على الدليل، بينما يهدف مجال الدلالة إلى فهم الخطاب، فهذان المستويان يكملان بعضهما البعض وفي علاقتهما الارتباطية يتأسس التواصل، وهذا ما يفسره الشكل المرضي للغة (اضطرابات اللغة) حيث نجد أن هاتين الملكتين تكونان منفصلتين. وحسب **بنفنيست** Benveniste فإن اللغة الإنسانية هي الوحيدة التي تحتوي على النظامين سابقي الذكر والمؤسسين للمعنى (Benveniste, E. 1974: 65).

وهذا البعد المزدوج هو الذي بإمكانه تفسير وتوضيح ملكة اللغة الشارحة، باعتبارها الشارح لكل الأنظمة السيميائية، فهي تحتوي على كل الأصناف التي تسمح بشرح نفسها بنفسها.

إن المقولة في معناها العام هي استعمال اللسان بفعل الفرد، وفي معناها المحدود هي تفاعل بين المتكلم و اللسان و السياق. فقبل المقولة نكون على مستوى نظام اللسان، وبعد المقولة يدخل المتكلم باستعمال اللسان في خطاب يتم خلاله إرسال مقولات إلى المستمع الذي بدوره يؤسس مقولات في ردود أفعال إلى المتكلم. وهكذا تظهر الكلمة في الاستعمال كعنصر تركيبي مكون للعبارات (Benveniste, E. 1974: 65).

ملكة الحكي وملكة الخطاب

يتجسد الخطاب في كونه عبارة تمتلك خصوصية الانتماء إلى نص، ولكنها في نفس الوقت نشاط مرتبط بمجموعة من شروط الإنتاجات الخاصة بالملكة المعرفية الاجتماعية للغة التي تتم ضمن وضع سياقي معين، لذا فإن الخطاب هو نص مأخوذ ضمن الوضع السياقي الذي ينتج فيه، وبهذا الشكل يصبح النص هو اللسان عند **سوسير**.

فالخطاب يمتلك خصائص علائقية تنسيقية على خلاف النص، وبهذا الشكل يصبح معمماً، وعلى مستوى هذا الخطاب يفرق المختصون في علم الأدلة بين الملكة المتعلقة بدلالة الحكي والملكة الخاصة بالخطاب؛ فالأولى عالمية خاصة بكل مجتمع لغوي تتنقل بالترجمة ما بين اللغات، وهي معروفة ومستعملة في الرموز السيميائية التي تحمل الدلالات غير اللسانية الصادرة عن العالم الطبيعي أوعن الأوضاع الثقافية، فهذه الملكة المتعلقة بالحكي تعبر عن القدرات الذهنية الإنسانية في كليتها، بينما الملكة الخاصة بالخطاب تتكون على العكس من ذلك لحظة بناء المقولات، فهي تتأسس في العملية النفسية ـ الذهنية لبنيات الملكات المتعلقة بدلالة الحكي وفي عملية تحويل هذه الأخيرة إلى بنيات خطابية.

ففي هذا الإطار لايوجد تقابل بين الخطاب الخاص بالحوار الذاتي والاتصال في شكله الحواري، فضمن بنية الاتصال يكون مسيّر ومؤسّس على المعايير الخارجية المتمثلة في السياق (النفسي، المرجعي...) وبالنسبة للمستوى الداخلي فهو يمتلك ملكة مستعملة في إطار تعميمه انطلاقاً من المعايير التوافقية للحكي لتصبح مستعملة داخل نماذج سيميائية مختلفة.

التناول التداولي للخطاب

منذ **موريس** Moriss ودراسة الأنظمة السيميائية تتأسس على ثلاثة مستويات:

- التراكيب المتمثلة في دراسة القواعد التي تربط العلامات فيما بينها.
- الدلالة المتجسدة في تحديد مرجعية العلامات.
- التداولية تهتم بالعلامات وعلاقتها بمستعمليها(Caron, J. 1983: 50).

فالتداولية هي دراسة أفعال القول في علاقاتها بجانب القصد العام لمستعمليها، وضمن السياق الذي تنتج فيه تأخذ بعين الاعتبار الاتصال كفعل وكتفاعل بين المتكلمين. فمثلا عندما أقول "*يجب أن تخرج*" فالمتكلم لا يعبر فقط عن حالة ما بل يجسد فعلاً محيلاً إلى شيء معين، فالقيمة التداولية لهذه العبارة تظهر في محتوياتها

الحاملة للمعنى فهي تدخل المتكلم في خطاب حقيقي مع متكلميه باستعمال مختلف الوسائل الخطابية. فالمتكلم بهذا الشكل لا يهدف إلى إيصال المعلومات فحسب وإنما إلى إنجاز فعل(Nouani, H. 1996: 213)، . فالخطاب هو الفعل وفي نفس الوقت نتيجة هذا الفعل فهو فعل الإنتاج الخطابي والنتيجة الملحوظة أوالمسموعة.

إن مفهوم التفاعل على مستوى الفرد والجماعة يظهر اللغة كوسيلة تفاعل وفي نفس الوقت كأداة تظهر من خلال عناصر هذا التفاعل، ففي هذه الحالة يجب أخذ بعين الاعتبار والتركيز على البعد الوظيفي للغة، لأن العبارات ليست فقط وصفاً لحالة أو لشيء معين بل هي الفعل الذي يدخل من خلاله المتكلم في علاقة مع متكلميه في وضعيات خطابية معينة. هذه الخاصية الوظيفية ليست دخيلة على النظام اللساني بل هي جزء منه مما يسمح للغة بأن لا تكون وسيلة للتصور ووصف الواقع فقط، بل كذلك وسيلة اتصال(Nouani, H. 1996: 216)، وهذا ما يستدعي الاهتمام بالمنهج التداولي الذي يتأسس على العوامل التالية:

كل فعل اتصالي يتمحور ضمن سياق(السياق النفسي، الاجتماعي، المرجعي، الفعلي...) ويرتكز على شخصية المتكلمين وعلى طبيعة المعلومات المتبادلة.

وظيفة الاتصال اللغوي تتطلب تجاوز العبارات المعزولة ومباشرة مستوى الخطاب، لأن فعل القول لا يأخذ معناه إلا ضمن الوضع الخطابي العام الذي أنتج فيه (Caron, J. 1983)، فأخذ المستوى الخطابي بعين الاعتبار يصبح ضرورة، لأن العمليات النفس لسانية لا تؤخذ منعزلة بل في تفاعل تطبعه عملية الانسجام والالتحام.

ترتكز عملية الاتصال اللساني على مجموعة من الشروط تتمثل في شروط القصد وشروط الرسو:

شروط القصد

هذه الفكرة مستوحاة من نظرية الأفعال اللغوية التي ترى أن كل لغة تمتلك مختلف الوسائل لإرسال الرسالة اللغوية بصيغ مختلفة، فهي تتمثل في ما يطلق عليه **أوستين** (Austin 1962) الأقوال الأدائية، وهذه العبارات لا تخص إطلاق حكم، وليست لها وظيفة وصف وتصور حالات معينة بل تهدف إلى تحقيق فعل. وفعل القول يعتبر أصغر وحدة تحقق بواسطة اللسان فعلاً (أمر، طلب...) يؤول انطلاقاً من فهم قصد المتكلم، و**أوستين** يعتبرأن إنتاج فعل قولي تتولد عنه ثلاثة أفعال:

- فعل العمل القولي acte locutoire الذي يظهر من خلال استعمال المتكلم لعبارة من أجل التعبير بالرجوع إلى المرجع، فهو فعل قول شيء معين.
- فعل العمل المضمن في القول acte illocutoire أين ننجز في كلامنا ذاته عملاً يُحور العلاقات بين الفواعل المتعاملة (المتفاعلين) من قبيل الإثبات والوعد والشرح والتبرير والطلب.... ويصنف **سيرل** Searle أفعال العمل المضمن في القول حسب اتجاهها المكيف للغة ومعطيات العالم الخارجي، ففي العبارات المحتواة على التأكيد يتم اتجاه التكييف من الكلمات نحو العالم الخارجي، بينما العكس في ما يخص العبارات الموجهة.

فعل التأثير بالقول acte perlocutoire المتمثل في الأثر النفسي الناجم عن القول.

شروط الرسو

هذه الفكرة ترجع إلى نظرية الأداء التعبيري لصاحبها **بنفنيست** والتي ترى أن كل لغة تمتلك وسائل التعبير عن حضور عبارة المتكلم في مقولاته التي تظهر من خلال البصمات

والإشارات وعبر مختلف الأشكال الزمنية، فالعلامات تكون فارغة وهي منفصلة عن المرجع وتصبح حاملة للمعنى عندما يدخلها المتكلم في خطاب ما.

خلاصة

يمتلك الخطاب مجموعة من الاستراتيجيات تكون مستعملة بشكل تداولي داخل المجتمع اللغوي الواحد، وهذه الاستراتيجيات والتنظيمات الخطابية تكون متغيرة حسب مختلف السياقات الحاملة للمعنى. فالخطاب مبدئياً هو في علاقة مع أنواع خطابية أخرى بمعنى أن كل خطاب يستدعي حضور خطاب آخر. فمعنى الخطاب ليس موجودا داخل نفس الخطاب الواحد بل هو مرتبط بمجمل الخطابات القبلية والبعدية التي تدخل في علاقة به. لذا فإن تحليل الخطاب يستدعي أخذ بعين الاعتبار إعادة بناء مختلف شروط الإنتاج والفهم المتمثلة أساساً في علاقات التبادل الذاتي التي يتأسس عليها التفاعل اللغوي، حيث تسمح لكل المتكلمين بقراءة أفكار بعضهم البعض (Bruner, J, S. 1995: 76) وذلك عن طريق الاستراتيجيات المتبادلة ثقافياً والمستعملة في الخطاب مما يُعطي الانسجام على مستوى هذا الأخير، وهو انسجام تُترجمه التنظيمات النفسية للمتكلمين على مستوى اللغة الداخلية من خلال التفكير، فيظهر التنظيم الخطي للكلمات داخل الجملة كنتيجة للتتابع الطبيعي للأفكار على مستوى الذهن، فالمتكلم يتمثل الأشياء قبل أن يطلق عليها حكماً(Ducrot, O.1986:19).

ترتكز هذه الاستراتيجيات المستعملة في الوضعيات الخطابية بصفة أساسية على الكفاءات النفسـ لسانية التي تستدعي استعمال مختلف الأنواع الخطابية: الشرح ،التبرير،الوصف... والتي يطلق عليها **كوليولي** Culioli النشاطات الماوراء لسانية اللاواعية (Bronckart, J, P.1977: 313) فهي تظهر في استعمال الفرد لقواعد لغته؛ أي في استعمال النظام اللساني، وهذا الاستعمال هو الذي يسمح بتأسيس المعنى، لأن هذا الأخير يتأسس عند المتكلم ثم يعاد بناؤه عند المستمع في سياق المقولة عبر القيم المرجعية.

المراجع

ARMENGAUD, Françoise. (1990), La pragmatique, 2emeEd. Paris: PUF.

BENVENISTE, Emile. (1966). Problèmes de linguistique générale, Tome I.Paris:Gallimard.

BENVENISTE, Emile. (1974). Problèmes de linguistique générale, Tome II.Paris:Gallimard.

BRONCKART, Jean Paul. (1977).Théorie du langage : une introduction critique,2emeEd. Bruxelles: Mardaga.

BRUNER, Jerom. (1955).Y-a-t-il une fin aux révolutions cognitives ? In Revue française de pédagogie n° 111, pp73 ,84.

CARON, Jean. (1983). Les régulations du discours. Paris:PUF.

CARON, Jean. (1992). Représentation et communication : l'intégration de la dimension pragmatique. In Bulletin de psychologie N° 412, pp730, 736.

CARON, Jean. (1997). Précis de psycholinguistique. Paris: PUF.

CHOMSKY, Noam. (1970), Tr, Calvet, L, J. le langage et la pensée. Paris: Payot.

SAUSSURE, Ferdinand de. (1972). Cours de linguistique générale. Paris:Payot.

DUBOIS, Jean et all. (1973). Dictionnaire de linguistique. Paris: Larousse.

DUCROT, osgold.(1968).Qu'est ce que le structuralisme en linguistique. Paris: Seuil.

FRANCOIS, Frédéric et all. (1984).Conduites linguistique chez le jeune enfant. Paris: PUF.

JACOB, André et all. (1998) .Encyclopédie philosophique universelle. 2eEd.Paris: PUF.

JAKOBSON, Roman.(1963). Essai de linguistique général. Paris :Minuit.

MOECHLER, Jaques et ROBOUL, Anne. (1994). Dictionnaire encyclopédique de pragmatique. Paris: Seuil.

NOUANI, Hocine.(1996).Ebauche d'analyse du discours. In psychologie N°5.6, pp 213,239.